انتقام من الحياة

زهيرة اليافي

رجل قصير ، لكن شكله غير جذاب عريضة وشعر أسود متموج ، وبتمتع بنظرات عميقة ، دخل عند بائع الدواجن ، ووقف في نهاية الطابور . وقد وضع على عينه نظارة ذهبية جعلت منه مهندسا فنانا هاويا . وأخذ الرجل يتأمل عاملة الخزانة وقد بدت عليها السعادة . فقد كان اليوم ٢٥ ديسمبر عام ١٩٥٠ من أيام الأعياد التي تنشط فيها عملية البيع

ولاحظ الرجل أن المرأة على الخزانة تتأمل النقود بكل دقة . ثم تعيد الباقي . وعندما جاء دوره بدا ضاحكا . وبصوت مرتعش اشترى أوزة لأسرته . أوزة سمينة للأعياد . كان يبلغ ثمنها في ذلك الوقت ٣٠٠ فرنك . وبدون أن يشعر وضع النقود على الخزانة . ووقه زبناء من فئة الألف فرنك . وبعد أن أعادت إليه المرأة باقي النقود . أخذ خطوات مرتعشة ناحية محطة المترو . ثم جلس في المترو والأوزة على ركبته . فعادت الدماء ثانية إلى وجهه . واسترخى من جديد .

وبعد ساعة وصل الرجل إلى بيته . حيث يقطن في فيلا متواضعة . تقع أنيقة . تقع بضاحية بالقرب من باريس . واستقبلت زوجته على عتبة المطبخ وبصحبتها الأوزة . أما أطفالهما الذين تتراوح أعمارهم بين ستين وأربع سنوات . فكانوا يلعبون داخل حجرتهم . وجلس الرجل بمفرده ليسترد أنفاسه . فقد تملكه أحاسيس من الصعب تحليلها . ففي في خيط من القلق والرضا . الفخر والفشل . السعادة والحزن . وبقي سؤال . هل يأتي البوليس ؟ وجلس الرجل ينتظر . وظل انتظاره إلى سنوات .

وكان الرجل في عام ١٩٢١ من أصل بولندي . وتحصل ضابطا بالقوات المتحدة الألمانية في عام ١٩٣٩ . وبناء على طلبه ذهب للخدمة في « مرسيليا » في عام ١٩٤٤

وهو حاصل على دبلوم الخدمة التجارية . إلا أنه لم يفده بشيء . لأنه لا يتقن اللغة الفرنسية . واستقاد الرجل مرواحه من أبيه تجارة لوزي معروف . ولكن لن تقبله عائلة الزوجة . لأنه لم يحقق المكاسب المادية لأسرته . وهذا هو من ذلك الطراز الذي لا يستطيع القتل أو السرقة للحصول على المال . فلم يبق أمامه سوى حل واحد . تزييف النقود . بمعنى هذا أن العملة التي دفعها لأوزة الأعياد . كانت مزيفة

ولم تكن مزيفة فقط . بل كان الرجل يصنعها بنفسه من أولها لآخرها . الورق والرسم والطبع . دون أن يستعين بأحد .

وكان طبيعيا بالنسبة لهذا الرجل أن يحصل على كل شيء يتعلق بالرسم من الفحم والقصدير . وبعد عدة أيام جلس ينتظر البوليس . ولكنه لا يأتي . وكان لا يحتفظ بكميات الأوراق المزيفة . وقد أتلفها . فحتى الاحتياطي كان يقلقه على القور

وكان الرجل على علم بأنه لا كتشاف هذه النقود المزيفة لابد من إحصائي ويعرف أيضا أن هذه النقود المزيفة بها بعض الأخطاء . فرقم المجموعة يتكرر . وكل الخادع التي قام بتزييفها تحمل نفس الرقم المتسلسل . لذلك كان حريصا على إنفاق هذه النقود في أماكن متفرقة . كان هذا هو المبدأ . أو بالأحرى هي القاعدة الذهبية التي اتبعها واخترعها وكانت خطته فيما بعد بسيطة للغاية . إذ يقوم بشراء أشياء صغيرة ثم يسدد ثمنها من النقود . وهذه الأشياء لا يأتي بها للمنزل . بل يتخلص منها أولا بأول .

وبالنقود الباقية يشتري شهادات استثمار من مكاتب البريد . ثم يعيد الرجل الكرة في أسلوب حياته . بل كان ينتظر حتى تتحول مدخراته إلى ثروة حقيقية . وفي هذه الحالة فقط عندما يبلغ غايته فإنه يترك عملية التزييف . كان هذا هو المنهج الذي وضعه لنفسه .

وبالرغم من كل شيء فقد اعتمد البنك على مهارة وديناميكية الضابط « برنو » الذي قاد حملة واسعة لمقاومة هذا التزييف . حتى يقضي على هذه التجارة . ولكن مرت السنون والمهندس مستمر في حذره

وأخيرا في عام ١٩٦٣ أصدر بنك فرنسا عملة جديدة لا يمكن تقليدها وهي الورقة من فئة المائة فرنك . التي تحمل صورة « بابلون بوارت » .

الطريف بالنون « مساعدين » . فلابد له على الأقل من رسام ونقاش وعامل أكلاشيه وعامل طباعة . هذا غير عدد يتولى تصريف تلك النقود المزيفة .

ولم يكن هناك في العالم . وبالذات في عام ١٩٥٠ . سوى آلة فقط يصنعون هذا النوع من الورق الذي يتحدم في صناعة العملات . فالحصول على هذا النوع من الورق مستحيل . إذ أنه يقع تحت حراسة مشددة مثله مثل احتياطي الذهب

أما الوانها المركبة فكانت عصر الأمان والطمأنينة . ومع ذلك نجح المهندس الفنان في تزييف تلك العملة الجديدة . وأتقنها إلى درجة أنها كانت أكثر دقة من العملة الأصلية .

وبالفحص المركز اتضح للمحقق « برنو » أن الورقة لا تحمل سوى أربعة أخطاء فقط . وهي أخطاء بسيطة للغاية لا يمكن أن يلاحظها إلا المتخصصون . باستعمال عدسة معينة . ولتصريف هذه النقود الزيفة الجديدة اتبع الرجل نفس الأسلوب في الحذر والحرص .

ومع ذلك وفي أكتوبر عام ١٩٦٣ . أي بعد أحد عشر شهرا من صدور العملة الجديدة . لاحظ أحد موظفي بنك فرنسا أن أمامه مجموعة من النقود تحمل صورة بوارت . . وزوم كاملة تحمل نفس الرقم .

وعلى الفور أجرى الأخير تحرياته . واتضح أن هذه النقود أودعت في مجموعات . عن طريق مكتب بريد استلمها من مسافر فرنسي وبنا أن المسافر كانت قد اعتلات برجال البوليس . فقد تم العثور على ذلك المسافر الفرنسي في برلين . وشرح كيف إنه حصل على هذه النقود من مكتب بريد في باريس على هيئة مدفوعات بحوالة بريدية

وتأكد الخبير « برنو » أن البوليس الفرنسية لن تسكت هذه المرة . فلم يعد لها أن تعرف الصحافة الخبر . خاصة أنها لن تفوت هذه الفرصة . وأسرعوا بوضع الخبر بيده على دليل قوي مجموعة واحدة تحمل نفس الرقم المتسلسل . وهذا يعني أن التزوير قد تم هذه المرة بالجملة . وبناء على ذلك وضعت مكاتب البريد تحت المراقبة المشددة .

وفي جرس التليفون في يوم ١٧ يناير عام ١٩٦٤ بمكتب التأمين « برنو » . . فقد تم العثور على أحد المشوهين . وبعد خطوات كان المأمور بنفسه داخل سيارته . عندما تبع رجلا غريبا يسير في شارع فرانسوا الأول . وكان الرجل يضع يديه في جيوبه . راقبه بقية سيارته حتى غيبته من شدة البرد . وقال أحد رجال البوليس . لقد أودع توا في مكتب البريد مجموعة من عشر ورقات مزيفة . وكان من السهل معرفة اسم الرجل وكان رومي الجنسية

ورغما عنه قال المأمور بصوت حانق : بالله من لي ؟ لو أنفق ورقة واحدة

من هذه النقود . وكان البوليس حلقه اليوم . . ثم دخل الرجل منزلا ليخرج منه بعد ساعة وهو يحمل حقيبة جلدية . وبمجرد أن غير الشارع رفع المأمور يده على كتفه .

وشحب وجه الرجل . لكنه لم يأت بحركة واحدة ولم يحاول حتى الدفاع عن نفسه . وقال الشارع على الرصيف ، فتح المأمور الحقيبة فإذا بها مليئة بالأوراق المزيفة . عملات من فئة المائة فرنك . وأخرج المأمور عينة وفحصها بدقة . وتأكد بالفعل أنها كلها مزيفة .

لم يستطع الرجل الإنكار . فاعترف على الفور أنه حصل عليها من زوج شقيقته . ونظر إليه المأمور « برنو » باستخفاف . إذ كيف يكون زوج شقيقته قادرا على صنع هذه النقود بنفسه ؟ وبعد استجواب ، تبين أن الرجل يشتري هذه العملات المزيفة بالجملة ، فيشتري الورقة من فئة المائة فرنك بحوالي ٦٥ فرنكا فقط .

ورفض الرجل أن يدلي باسم البائع . لكنه لم يصمد كثيرا . فعندما وضع المأمور يديه على أجندة صغيرة بها أرقام تليفونات وعناوين ، وراح يقرؤها بصوت مرتفع ، حتى نطق اسم المهندس الفنان . شحب وجه الرجل وأخذ يتصبب عرقا .

كان المهندس زميل حرب ، وكان صديقين عانا معا لحظات صعبة من الحياة والموت . وعلى الفور اتجه المأمور إلى عنوان المهندس . وتجمعت سيارات البوليس في سرية تامة في شوارع باريس ، وتأكد المأمور من أن سلاحه في مكانه . ثم دق جرس باب الفيلا المواجهة رقم ٣٣ . ليفتح له وجل أشد مواجهة .

وبعد أن تأكد المأمور من شخصية المهندس ، أبلغه أنه متهم بتزييف النقود ، وأنه يلقي القبض عليه . وراح المأمور يتأمل المكان حوله . وظهرت الزوجة ثم غلامان في السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمرهما . وبدا كل شيء داخل المنزل منظما . كما كانت المائدة معدة في حجرة الطعام . ولاشيء هناك من بعيد أو قريب يوحي بصنع العملات المزيفة . فلا أوراق مبثوثة في خيوط ولا آلة كبس باليد . ولا أدوات . لاشيء من هذا القبيل . مجرد بيت هادئ لمهندس بسيط . وكانت هناك فرصة أمام الرجل للإفلات . لولا أنه ارتكب خطأ أو خطأ نفسيا . فبدون أن يشعر قال :

« لا أعرف ماذا تريد يا سيادة المأمور . ولكن هل يمكن أن تكلل زوجتي والأولاد خطاهم ؟ فلا داعي لاقحامهم في مثل هذه الأمور » .

وقاد المهندس المأمور إلى الصالون . وهنا فكر المأمور بسرعة . لو كان هذا الرجل بريئا لدافع عن نفسه على الفور . وما قال إنه يريد إبعاد زوجته وأولاده عن تلك الأمور . وكان الأولى به أن يقول إن هناك خطأ ما . وسوف يتضح هذا الخطأ بعد دقائق . وبدلا من هذا اقترح على المأمور بأدب أن يجلس كما لو كان يعرف أن الحديث سوف يطول .

أخرج المأمور العملة المزيفة . فأنكر الرجل قائلا انه لا يعرف شيئا عنها . ولكن المأمور « برنو » أمر بدخول المحررين وتفتيش المنزل واستمرت عملية التفتيش أربع ساعات متواصلة . من الاستجواب المتصل . . ولكن بلا فائدة .

ثم فجأة لاحظ أحد رجال البوليس أن مشمع أرضية المطبخ حدث بطريقة لافتة . تبعث على الشك . فهناك قطعة مستطيلة وضعت عليها شريطة كهربائية . ورفع رجل البوليس المرفق ، ثم مشمع الأرضية ، فإذا بقطعة من الخشب تظهر . وقال المهندس : « إنني مهندس ، وهذا هو المعمل السري الذي أقوم فيه بأبحاثي » .

وعندما رفع المأمور « برنو » القطعة ظهر سلم خشب أوتوماتيكي يوصل إلى معمل صغير ، مساحته حوالي خمسة أمتار مربعة . وعثر المأمور على لوح نحاس عليه ثلاثون ورقة من فئة المائة فرنك . ولم يبق أمام المهندس إلا أن يكشف سر صناعة التي يفخر بها .

الأدوات التي يستخدمها هي عبارة عن آلة كبس باليد وحفر وميكروسكوب . وكل هذه الأدوات صنعها بنفسه ، وتلح المأمور اتابيب من النيكل المركز . والتي يملئ بداخلها بعض الأحبار الدهنية . وهي الأشياء الوحيدة التي يشتريها مع ورق الشجار الذي يخلطه بورق الكتان . . هذا مع قليل من ماء النهر . وبهذه الطريقة البسيطة يصنع ورق النقود السري . إنها عملية شاقة استغرقت منه شهورا طويلة حتى أتقنها . أما لكي يحصل على الشكل الدقيق فكان ينزل شجرة الورق نحفر على لوحات من النحاس تحمل النقوش والصور المطلوبة . . وأمام خلاط ينزل هذه النقود نحفر .

ورغما عنه لم يستطع المأمور « برنو » إخفاء إعجابه . فكان يعلم أنه لكي تبدو النقود المزيفة قادرة . فإنها تلاقي أصعب العمليات التي تواجه المزيفين . وتواجهها هذه المشكلة فقد وجد المهندس وسيلة رائعة . استخدم خلاطا قام بتطويره بنفسه . ووضع النقود بداخله . ثم تركها لمدة لعدة ساعات . ثم أضاف عليها قليلا من رماد السجائر وبعض الرمال الشفافة . وبذلك يحصل على صقل لاتمكن تقليده .

كما عثر المأمور في درج صغير على ٢٢٠ مليون قطعة مزيفة في مجموعات مرصوصة بعناية . وزع منها المهندس على هذه البنوك حوالي ٥٠ مليونا . وأثناء إلقاء القبض عليه في يناير عام ١٩٦٤ كانت مدخراته قد بلغت من القطع الذهبية حوالي ٧٠ مليونا أي ٧٠٠٠٠٠ قطعة جديدة .

ونظر المأمور للمهندس بدهشة . فأساليبه تدل على نوعية العمل نفسه . . فلو كان استغرق العمل بمفرده . كأب هادئ تخصص في هذه الصناعة . ما قبض عليه أبدا . خاصة أنه استمر في هذا العمل ثلاثة عشر عاما دون أن يشك فيه أحد . . ثلاثة عشر عاما أحس فيها بالأمان الكامل . وكان المهندس يعلم أنه مصاب بمرض خطير في العظام . لذلك أراد أن يسرع في تأمين أسرته . ويوفر لها المدخرات وكان في حاجة لأن ينجح في خطة لا مثيل لها . كان في حاجة لأن يثأر من الحياة نفسها . إنه الانتظام من الحياة والتفوق على المرض .

وقد حقق المهندس هذا الانتظام حقه عندما احتل مقعده كان الصدارة في أرشيف الأمانة العامة للأنتربول . حيث تجمع بيانات العملات المزيفة في العالم كله . .

وهذا يعني أن المهندس الفنان يساوي حوالي ١٠ ملايين من العملات القديمة ■

تصميم محمد ابراهيم